المؤنّث في اللّغة العربيّة
أصوله، تطوره، أنواعه، وعلاماته

د/ عبد الرزاق عبيد*

جامعة الجزائر2 ، rezakabid@yahoo.fr

الإرسال: 2022/12/31 **القبول**: 2024/10/14 **النّشر**: 2024/10/25.

الملخّص:

يعتمد الحسّ اللّغوي في اللّسان العربي على قواعدَ معينة من خلالها نفرق بين المذكّر والمؤنث. فالمعجم يعرّف المؤنّث بأنّه ضد المذكر. وهذا لا جدال فيه ، ولكن ما هي الوسائل التي يتعرّف القارئ بواسطتها على أنّ هذا اللّفظ مذكّر ، أو مؤنّث ؟

الكلمات المفاتيح: المؤنّث ، المذكّر ، التطوّر اللغوي ، صيغة صرفيّة.

The Feminine in the Arabic Language :
Its Origins, Development, Types and Signs

Abstract: The linguistic sense in the Arabic language depends on certain rules through which we distinguish between masculine and feminine. In fact, the dictionary defines the feminine as the opposite of the masculine, and this is unquestionable. But, what are the means by which the reader recognizes whether this word is masculine or feminine?

* **المؤلف المرسل.**

Key Words: The feminine, the masculine, linguistic development, morphological form.

مدخل

يعتمد الحسّ اللّغوي في اللّسان العربي على قواعد معينة من خلالها نفرق بين المذكر والمؤنث. فإذا فتحنا المعجم على مادّة: (أنث) فإنّنا نجده يعرف المؤنّث بأنّه ضدّ المذكر.[1] ولكن ما هي الوسائل التي يمكن من خلالها التّمييز بين المذكّر والمؤنّث؟ تجيب كتب النّحو التّعليميّة على هذا السّؤال بقولها أنّ المؤنث يعرّف بثلاث علامات في آخر الكلمة:

- التّاء المربوطة.
- الألف المقصورة.
- الألف الممدودة." [2]

وتعدّ هذه العلامات قاعدةً عامّةً ، لكن عند تتبع الألفاظ المؤنّثة في اللّغة العربية نجد أنّ الأمر أكثر تعقيدًا من هذا ، لأنّ هناك:

أ - فئة مذكرها خال من العلامة ومؤنثها تلحقه علامة كضارب وضاربة ، سالم وسلمى ، وحسن وحسناء.

ب - فئة يختلف فيها اسم المذكر عن المؤنث من حيث مادّة الاشتقاق مثال: رجل/امرأة ، جمل/ناقة ، حمار/أتان.

ج - فئة خالية من أي علامة وتختص بالمؤنث فقط. مثل امرأة عاقر ، وحامل ، ومرضع... إلخ.

د - فئة يصحّ فيها التذكير والتأنيث معا مثل: زوج ، عروس ، طريق... إلخ

ه - فئة تلحقها العلامة وتختص بالمذكر: مثل: علّامة ، فهّامة ، نسّابة...إلخ

وهذه تعد أمثلة مختصرة ذكرناها على سبيل المثال لنلفت الانتباه إلى مدى تعقد مسألة المؤنث في اللغة العربية وكثرة أنواعه.

إن كثرة الأنواع هذه ناتجة عن التطور المستمر ، والاستعمال المتواصل الذي خضعت له اللّغة العربية عبر الأزمنة ومازالت خاضعة له ليومنا هذا على مختلف المستويات سواء على

مستوى الأصوات أو الدلالة ، أو الاشتقاق خاصّة وإن هذه اللغة تعد من أقدم اللغات المدونة التي بقيت حية تصارع الزمن إلى اليوم ، وتتأثر بمختلف العوامل التي من خلالها يمكن أن نتتبع نمو اللغة وتطورها وفق مراحل متتالية لكل مرحلة ألفاظها المحددة ، وهذا التحديد هو أحد ميزات اللغة العربية ، واللسان هو الذي يتفنن في صيغتها وفق قواعد نحوية. وعلى هذا الأساس سنحاول عرض الحالات التي يفترض فيها تمييز المذكر عن المؤنث.

1- التـــاء:

إن التاء توجد في كل اللغات السامية ، الحامية كعلامة للتأنيث [3] ، وهو ما يدل على قدم هذه العلامة. وتكون التاء في اللغة العربية متصلة دائما بآخر الكلمة فتعتريها حالات:

تنطق "هاء" عند الوقف (كفاطمه ، وآمنه)، أو تنطق "تاء صريحة" عند الوصل (كعائشت زوجة الرسول (ص) أو عائشة زوجة الرسول ﷺ ، أو "تاء مسبوقة بسكون" مثل: أُخْت ، بِنْت ، ثِنْتان ، كِلْتا ، وهَنْت. وهذه كل ما أحصي من كلمات تتضمن تاء مسبوقة بسكون في ما وصلنا من اللغة العربية. عكس اللغات السامية الأخرى التي يغلب فيها هذا الصنف أكثر من غيره.

ولقد اختلف الباحثون في الكيفية التي ظهرت بها التاء أول مرة في اللغة السامية. وملخص آرائهم:

1. أنها كانت عبارة عن اسم إشارة.

2. يظهر من خلال تتبعها في مختلف اللغات السامية الأخرى أنها كانت دالة على المفعول به [4].

3. أنها كانت علامة دالة على التكثير والمبالغة. لقد نقل السيوطي عن أبي زيد في نوادره قوله: "رجل عيّابة يدخلون الهاء للمبالغة" [5] فقد تكون صيغة " فعالة " التي يتصف بها المذكر قد تخلفت في العربية من المراحل الأولى التي لم تكن قد استقرت فيها التاء بعد كعلامة خاصة بالتأنيث.

– إن التاء كعلامة للتأنيث تكون مسبوقة دائما بفتحة قصيرة أو طويلة (ألف) ما عدا في بضعة كلمات ذكرناها (أعلاه) تكون مسبوقة بسكون ، ولذلك نفي بعض النحاة ومنهم " ابن

جني " أن تكون هذه التاء من علامات التأنيث فنسب قولا لسيبويه مفاده أنها ليست من علاماته لكونها مسبوقة بسكون غير أنه وفي النسخة التي بين أيدينا ينص سيبويه صراحة أن تاء: أخت وبنت الخ... تاء تأنيث.[6]

المهم أن هناك تاء مربوطة ، وأخرى مفتوحة. وهذه الحالة أيضا تطرح إشكالا آخر. وهو هل هاتان العلامتان صيغتان مستقلتان ، أم أن إحداهما عبارة عن تطور للأخرى ؟ مرة أخرى ليس هناك ما يؤكد صحة رأي على آخر. غير أن بعض المستشرقين يعتقد أنهما صيغتان مختلفتان موغلتان في القدم ، ويعتقد البعض الآخر أن إحداهما عبارة عن تطور صوتي للأخرى.[6]

- التاء علامة للمذكر: لقد أحصى اللغويون القدامى "كثعلب في فصيحة" ، و"أبي زيد في نوادره" ، و"ابن دريد في جمهرته" وغيرهم العديد من الكلمات التي تلحق أخرها تاء ، ومع ذلك تختص بالمذكر دون المؤنث. ويتضح أيضا مما ورد من تلك الكلمات أنها جاءت على صيغ صرفية عديدة ، وهذه أمثلة منها: "تقول رجل راوية للشعر ، ورجل علامة ، ورجل نسابة ، ورجل محذامة ، ورجل مطرابة ، ورجل معزابة ، ورجل هيوبة ، ورجل طاغية ، ودرهم قفلة أي وازن ، وسيف مهذرمة الخ... [7]

- التاء علامة للمذكر أو المؤنث معا: وهي صنف آخر من الكلمات التى أوردتها كتب اللغة ، وصحت عن العرب الفصحاء. وهي كلمات يصح أن يوصف بها المذكر كما يوصف بها المؤنث. قال "ثعلب في فصيحه": " رجل ربعة وامرأة ربعة (أي وسط لا طويل (ة) ولا قصير (ة)، ورجل ملولة وامرأة ملولة ، ورجل فروقة وامرأة فروقة (للجبان(ة)، ورجل منونة وامرأة منونة ، ورجل لجوجة وامرأة لجوجة ، ورجل همزة لمزة وامرأة همزة لمزة الخ...

من خلال ما قدمنا يتضح لنا ان التاء كما هي مختصة بالمؤنث جاءت أيضا للدلالة على بالمذكر. وجاءت مشتركة بين الاثنين. وعلى العموم فأن الكلمات المختصة بالمذكر ، والكلمات المشتركة ، تعد قليلة أيضا في اللغة العربية. وهذا يجعلنا نعتقد أن هذه الكلمات قد تكون منحدرة من مرحلة معينة في تاريخ اللغة العربية. لأن اللغة في أي مجتمع لا تقبل أن تستعمل علامة واحدة لشيئين متقابلين في فترة زمنية واحدة لما قد يسببه ذلك من لبس وغموض من حيث الدلالة ، وإذا حدث ذلك فانه يكون إما بسبب الافتراض ؛ كأن تدخل اللفظة من لغة

أخرى. أو تكون اللفظة قد تخلفت من مرحلة سابقة من مراحل تطور اللغة ، وفي هذه الحالة قد لا تخرج اللغة عن كلمات بعينها لا تتعداها إلى غيره ، ولا يصاغ على مثالها.

وعندما تتعاصر علامتان ، فان ذلك يكون لمرحلة معينة ما تفتأ أن تترك إحداهما مكانها للأخرى.

ولعل فيما ذكرناه تفسيرا لأسباب تداخل التاء بين المذكر والمؤنث.

2- الألف الممدودة:

ذكر منها "سيبويه" ما يزيد عن العشرين (20) كلمة [10]. وواضح أن غرضه من ذكرها ليس إحصاء كل ما جاء منها. فكتابة ليس كتاب لغة ، ولكن ما يهمه منها هو الصيغ التي وردت عليها الكلمات المنتهية بالألف ممدودة ؛ وهذا يدخل في صميم موضوع كتابه النحوى الصرفي. [11]

وهذه أمثلة منها: صحراء ، نُفساء ، كبرياء ، عاشوراء ، أصدقاء ، زمكاء ، بزُكاء ، دبوقاء ، عَقرُباء. [12]

معلوم أن هذه الصيغ تتفاوت من حيث كثرة استعمال كل صيغة او قلتها في اللغة العربية. فصيغتي فعولاء كبروكاء ، وفعلاء كزمكاء.

والكلمات مهما كان اختلاف صيغها فإنها تنتهي كلها بالألف الممدودة والهمزة. والهمزة من الناحية الصوتية يمكن الاستغناء عنها دون أن يحدث لبس في المعنى. فبعض القبائل العربية كقريش مثلا كانت تسهل الهمزة إذا لم تكن في أول الكلمة. ونحن نشهد في استعمالنا المعاصر اليوم في لهجاتنا المعاصرة ان المتكلمين لا ينطقونها بتاتا.

والملاحظ أن الصفات التي تنتهي بألف ممدودة وهمزة في اللغة العربية أغلبها يدخل في باب الذم والقدح والتحضير والتنفير أو بعبارة عامة كل ما هو سلبي غير محبب للنفس.

فمن مجموع سبعين (70) كلمة وجدناها في المزهر على سبيل المثال ليس منها سوى عشرين (20) كلمة صفات حميدة محببة للنفس. وأما الباقي فمما ينفر منه. وهذه أمثلة من كل نوع:

الصفات المحببة: امرأة حسناء ، أرض ثرياء ؛ أي ذات ثرى ، ناقة روعاء ؛ أي شديدة نشيطة ، امرأة عجزاء ؛ أي عظيمة العجيزة. الخ.....

الصفات المذمومة: امرأة حوثاء ؛ أي عظيمة السرة ، امرأة خلباء ؛ أي لا تحسن العمل ، امرأة خوثاء ؛ أي عظيمة البطن ، امرأة دعفاء ؛ أي حمقاء الخ..... [13]

وقد وجدت فئة من الكلمات المنتهية بالألف الممدودة تكون للمفرد كما تكون للجمع مثالها: حلفاء وحلفاء واحدة. وطرفاء للجميع واحدة. [14]

3-الألف المقصورة:

نحن نعرف أن بعض القبائل العربية كانت تميل بصوت الألف نحو الياء ويسمى هذا في مصطلحات الصوتيات " بالإمالة ". ويقول النحاة واللغويون أن الأصل في هذه الألف هو الياء ولذلك بقي شيء من صوتها في الكلمات. ولما كان النحاة واللغويون متمسكين أشد تمسك برصد كل الاختلافات النطقية الجارية على السنة العرب فقد ميزوا بين صوتين يسمعان في الكلمات المؤنثة: صوت ينحو نحو الواو فرسموه ألف ممدودة ، وصوت ينحو نحو الياء أو هو ارق من الأول فرسموه مثل الياء ولكن بدون نقط ليتميز عنها وأطلقوا عليه ألفا مقصورة.

وكانت ظاهرة الإمالة هذه متفشية في ألسنة العديد من القبائل العربية ؛ كقريش وقيس وطيء وغيرها. ففي نص لأمام النحاة "سيبويه" نجده يقارن ياء النسبة بالألف المقصورة ليبين لنا مدى التشابه الصوتي على ألسنة القبائل. يقول: " بعض العرب يقول صَوَرَيْ وقَلَهَيْ وصَفَوَيْ فيجعلها ياء كأنهم وافقوا الذين يقولون: أَفَعَيْ وهم ناس من قيس وأهل الحجاز " [15] فالكلمات صوري ، وقلهي ، وصفوي ، الياء فيها للنسبة. وقد بلغ ببعض القبائل كفزارة وقيس وطيء أن نطقتها ياء ساكنة في الوقف كما في الوصل. وقبائل أخرى تنطقها وسطا بين الألف والياء.

وتجب الإشارة الى أن الإمالة في اللغة العربية لا تغير المعنى فهي بديل حر ، بل انها مستحسنة في قراءة القرآن وإنشاد الشعر.

ويبقى السؤال المطروح هو: مادامت هذه الألف لا تغير المعنى فلماذا جاء المؤنث فيها بكلمات وبغيرها في كلمات أخرى؟ يذهب بعض الباحثين الى أن الألف المقصورة تكون قد

انحدرت من نظام سابق مرت به اللغة العربية ، وبقيت بعض آثاره في الكلمات التي وصلتنا. والأرجح ان هذه الألف لا تزيد عن كونها تطور حدث على مستوى أصوات بعض الكلمات [16].

ومازلنا نسمعها الى اليوم في اللهجة التونسية واللبنانية ، فهما تكثران من إمالة الألف في العديد من الكلمات بينما في الجزائر لا نميز بين صوت الألف المقصورة والممدودة إلاّ على مستوى الرسم الكتابي.

وترسم الكلمات المؤنثة بألف مقصورة في حالات منها:

- اذا كانت على صيغة (أفعل) مثل الأفضل الذي مؤنثه الفضلى ، والأول الذي مؤنثه الأولى.
- مؤنث صيغته (فعلان) مثل كسلان الذي مؤنثه كسلى.
- مؤنث صيغته (فعيل) مثل قتيل الذي مؤنثه قتلى. وجريح ، جرحى
- وبعض المصادر ك (فَعْلَى) مثل شكوى ، ودعوى. و(فِعلى) كذكرى ، وفكرى. و(فُعلى) مثل سكنى ، ورجعى. و(فَعَلَى) مثل رَشَدَى.[17]

و تبقى فئة اخرى من الكلمات التي مفردها ألف ممدودة وجمعها بألف مقصورة: منها صحراء وصحارى ، عذراء وعذارى وصلفاء وصلافى ؛ ارض غليظة. وخبراء وخبارى ؛ ارض فيها ندوة. وسبتاء وسباتى ؛ ارض فيها خشونة الخ...

4- الكسرة:

ان الأسماء المؤنثة بسبب علامة الكسر ، جاءت في اللغة العربية كلها على صيغة (فَعَال) واشتق من هذه الصيغة اسم فعل المؤنث ، واسم الوصف المنادى ، والمصدر ، والرباعي. [18] وقد اخترنا أمثلة هذا الموضوع من "الكتاب" لسيبويه مع الإشارة إلى ان "المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي" قد ضم منها ما يزيد عن مائة وخمسين كلمة (150) وهذه أمثلة منها.

- اسم الفعل المؤنث.(صيغة فَعَالِ).

قال الشاعر:

مناعِها من إبل مناعِها.

و قال أيضا:

تراكِها من إبل تراكِها

وقال أبو النجم:

حذارِ من أرماحنا حذارِ

الشاهد في مناعها ، وتراكها ، وحذار أن كل منها اسم فعل أمر. وكان حقه السكون لأن فعل الأمر ساكن ، لكنه حرك للالتقاء الساكنين ، وكانت الحركة الكسرة لأنه اسم مؤنث... والكسرة مما يؤنث به.

-اسم الوصف المنادى المؤنث:

قولهم يا خباث ويا لكاع فهذا اسم للخبيثة واللكعاء. ومثل ذلك قوى النابغة الجعدى:

فقلت لها عيشي جَعَارِ.

و انما هو اسم للجاعرة وانما يريد بذلك الضبع (...) وقال الشاعر:

لحقت حَلاَقِ بهم على أكسائهم.

فحلاق معدول عن الحالقة ، وانما يريد بذلك المنيعة. فهذا كله معدول عن وجهه وأصله نجعلوا آخره كآخر ما كان للفعل (...) كما عدل نظار وحذار واشباههما عن حدهن وكلهن مؤنث فجعلوا بابها واحد.

– ا لمصدر.

مما جاء اسما للمصدر قول الشاعر النابغة:

فحملت برّة واحتملت فجار.

ففجار معدول عن الفجرة. وقال الشاعر:

فقال امكثي حتى يسار لعلنا.

فهي معدولة عن الميسرة.

و قال الشاعر الجعدي:

والخيل تعدو في الصيد بدادِ.

فهذا بمنزلة قوله: تعدو بددًا. (19)

– الأسماء:

وقد سمت العرب بها أسماء نسائها: كغلاب ، وقطام ، وحذام... وسمت به حيواناتها المؤنثة كالكلاب: خطاف وكساب... ، وخيلها كسكاب وخصاف.... ، واسماء الأماكن كملاع وظفار...الخ... [20]

يقول سيبويه: " وما يدلك على ان فعال مؤنثة قوله: دُعِيَتْ نَزَالِ ، ولم يقل دُعِيَ نزال " ويضيف: " اعلم ان فَعَالِ ليس بمطرد في الصفات نحو حلاق ولا في مصدر نحو نجار ، وانما يطرد هذا الباب في النداء والأمر...[21]

و ما يقوي كون الكسرة من علامات التأنيث هو وجودها في الضمائر المنفصلة مثل: انتِ ، وهذه ، والضمائر المتصلة مثل: قمتِ وذهبتِ ، وفعل الأمر مثل: اذهبي واجلسي. يقول سيبويه: " الكسر مما يؤنث به. نقول إنك ذاهبة وأنت ذاهبة ، وتقول هاتي هذا للجارية ، وتقول هذه امة الله إذا أردت المؤنث وإنما الكسر من الياء".

اذًا كل ما سبق من كلمات فهو مؤنث بالكسرة وجاء على صيغة فعال. وهذه الصيغة مهيأة أيضا لكي تلتحق بها علامة ثانية للتأنيث وهي التاء. فتكون (فعالية) مثل: كراهية ، ورفاهية وكلتا الكلمتين استخدمتا في العديد من الكلمات القديمة. [22]

وكما لا يخفى فإن هذه الصيغة الجديدة (فعالية) قد انتشرت انتشارًا ملحوظا في كتابات المعاصرين.

5- صفات للمؤنث بدون علامة:

إن ما يلفت الانتباه في هذه القائمة من الصفات هو أن أغلبها يختص بالمؤنث فكأنهم طبقوا مبدأ الاقتصاد اللغوي فتخلوا عن العلامة كصوت زائد او رسم لاختصاص الكلمة دلاليا بالمؤنث دون المذكر. وأن هذه الصفات حيكت صيغها على منوال كلمات قديمة تخلفت من مرحلة أثرية من حياة هذه اللغة. وهي كثيرة. فقد جمع منها اللغويون في مصنفاتهم عددا كبيرا. نجدها عند ابن دريد في "الجمهرة" ، والفارابي في "ديوان الأدب" ، والجوهري في "الصحاح" ، وابن قتيبه في "أدب الكاتب" ، والأصمعي وابن السكيت وغيرهم.

و قد غطت في المزهر ما يزيد عن عشر صفحات.[23] منها ما يتعلق بصفات المرأة. ومنها ما يتعلق بالحيوانات كالفرس والشاة والناقة والظباء وهلم جرا. ونماذجها:

من صفات المرأة: امرأة مذكار ومئناث ؛ إذا ولدت الذكور أو الإناث وكان ذلك من عادتها. وامرأة سافر ، وحاسر ، وواضع ، وكاعب ، وحائض الخ...

ومن صفات الظباء: ظبية مطفل ومشدن ، ومغزل: معها شادن والشادن ما قوى وطلع قرناه...

ومن صفات الشاة: شاة صارف ، وداجن ، ومقرب الخ...

ومن صفات النوق: ناقة عيهل ؛ سريعة ، ودلاث ؛ جرئية على السير ، وهرجاب ، خفيفة الخ...

و من صفات الفرس: فرس مركض ؛ في بطنها ولد ، وقيدود ؛ طويلة الخ...

نلاحظ أن هذه الأوصاف قد جاءت على صيغ كثيرة ومتنوعة. غير أنه يمكن مع ذلك أن تندرج تحت بعض القواعد العامة التي يتعرف أو يبني على منوالها المتكلم أوصافا جديدة. منها:

- صيغة فعيل في تأويل مفعول. مثل ملحفة غسيل ، وكف خضيب.
- صيغة فعول في تأويل فاعل. مثل امرأة صبور وشكور.
- صيغة مفعيل. مثل: امرأة معطير.
- صيغة مفعال. مثل امرأة معطار ومعطاء.
- صيغة مُفعل مما لا يوصف به المذكر. مثل: مرضع.
- صيغة فاعل مما لا يوصف به المذكر. مثل: طامث ، وحائص. [24]

وهناك أيضا العديد من الأسماء الخالية من أي علامة للتأنيث ، ويفهمها المتكلمون باللغة العربية على انها مؤنث. وقد تطوع بعضهم فألف ما اختص منها بالإنسان نظما. فقال:

الساق والأذْن والأفخاذ والكبد والقلب والضِّلَع العوجاء والعَضُد

والزَّند والكف والعَجُز التى عرفت والعيــن والعُرْقُب المجزولة الأحــد

و السِّن والكَرِش الفرثى الى قدم من بعدهـــا وَرِك معـــروفة ويـــد

ثم الشمال ويمنـــاها وإصْبَعــها ثم الكُـراع وفيهـــا يـكمل العـدد [25]

لعل القارئ قد لاحظ أن جميع هذه الأسماء من أعضاء الإنسان المثناة.

وهناك أسماء أخرى تتميز خاصة بكونها إما أدوات تصنع بها أشياء أخرى ، أو وسائل مساعدة. وهي كلها خالية من علامات التأنيث. منها: نعل ، فأس ، قوس ، سكين ، قدر ، سلاح ،... الخ.

وبعض الكائنات الضعيفة: مثل: أرنب. والكائنات المنفردة. مثل: الضبع. وما يسبب الأذى كالنار وجهنم والحرب. كما ان هناك ما هو محبب ومبهج أيضا مثل المسك ، والذهب. والعسل.

والملاحظة الأخيرة هي أن لغة المعاصرين كثيرًا ما تعامل الآلات والمكنات على أنها مؤنث.

صفات للمؤنث والمذكر معا بدون علامة:

هذه الطائفة الأخيرة من أغرب ما يصادف الدارس في مسألة المذكر والمؤنث في اللغة العربية. ذلك أن منها:

- ما هو خال من أي علامة. ويوصف به المذكر والمؤنث على حد سواء. مثل: ثوب خلق ؛ أي بالٍ المذكر والمؤنث فيه سواء. مثل: شاب أملود وجارية أملود ؛ أي ناعمة الخ...

- وما يصح فيه الوجهان. العلامة وزوالها. يقال للأقعد في النسب: هو كُبُرٌّ قومه ، واكبرَّة قومه مثال إفعلّه. والمرأة في ذلك كالرجل.

- وما هو خال من العلامة ويصح إطلاقه على المذكر والمؤنث ، نكرة ومعرفة ، مفردا ومثنى وجمعا. يقال هو ابن عم لحٍّ في النكرة ، وابن عمي لحًّا في المعرفة. وكذلك المؤنث والمثنى والجمع. وهو مُصاص قومه إذا كان خالصهم ، وكذلك الاثنان والجمع والمؤنث. [26]

و إذا كان الأمر على هذا النحو من الغموض والإبهام في مثل هذه الكلمات ، فكيف تميز اللغة بين كل هذه الاختلافات من حيث الجنس (مذكر مؤنث) ، والعدد (مفرد ومثنى وجمع) ، والصنف (معرفة ونكرة)؟ خاصة وأن اللغة لولا تمييز بعضها من بعض لما استقام الأخبار عنها

والاختصاص بما أريد منها كما قال المبرد في "الكامل"[27]. والتمييز يتم في بعض جوانبه بالعلامات.

إن لهذه الظاهرة تأويلات. إما أنها " لغات متروكة "كما قال الجوهري في "الصحاح". كأن تكون هذه اللغات المتروكة بسبب قدم الكلمات وقلة استعمالها على ألسنة المتحدثين ، وعند بلوغ عصر التدوين ، وجد اللغويون هذه الكلمات ولم يكن بين أيديهم من النصوص ما يرشدهم لدلالاتها بدقة ، فاجتهدوا في تفسيراتها ومعانيها بالشكل الذي وجدناه في كتبهم.

وإما أن تكون الكلمة قد ارتجلت حديثا ولم يستقر مفهومها بدقة بعد في اللغة. فأخلط الباحثون في معناها الدلالي خاصة إذا لم تكن قد دامت طويلا وتخلى المتكلمون عنها.

- نتيجة:

ونتيجة ما سبق هو أن أساليب التأنيث في اللغة العربية من الصعب حصرها في الأدوات التي ذكرها النحاة القدامى. فقد رأينا أن العلامات التي ذكروها يتجاذبها المذكر والمؤنث معا ، وجملة كبيرة من الألفاظ المؤنثة معنى خالية من أي علامة ، وأخرى تلحقها العلامة وهي خاصة بالمذكر. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن المؤنث لم يكن عندهم قد استقر نهائيا على قواعد مضبوطة من جرّاء الإبهام بين نظام اللغة كأصوات ، ونظامها كرسم مكتوب. ها هي ذي التاء ثلاثة أنواع مربوطة وأخرى مفتوحة ساكنة ، وثالثة تنطق هاء عند الوقف. والألف ممدودة ومقصورة.

لكن عندما نتناول الموضوع من الناحية الصوتية فإننا نجد أن الألف الممدودة والمقصورة كلا هما عبارة عن فتحة طويلة. يقول ابن جني " أنك متى أشبعت ومطلت الحركة أنشأت بعدها حرفا من جنسها" [28]. فلا خلاف بين الألف المقصورة والممدودة سوى أن الثانية ممالة. والإمالة ليست وظيفية في اللغة العربية ؛ أي أن نطقها وعدمه لا يغير من المعنى شيئا ، وإنما الخلاف واقع بسبب الكتابة وهي نظام آخر كما ذكرنا لا يمكن أبدا أن يحل محل الأصوات في اللغة.

لذا فإن علامة التأنيث في الكلمات المنتهية بألف ممدودة أو مقصورة واحد وهي الفتحة.

أما التاء الساكنة في اللغة العربية فهي لا تزيد عن الكلمات القليلة التي ذكرناها.

وأما التاء المربوطة فإنها حيثما وجدت تكون مسبوقة دائما بفتحة أو ألف. يقول صاحب "الخصائص": " تاء التأنيث في الواحد لا يكون ما قبلها إلا مفتوحا نحو حمزة وطلحة وقائمة ولا يكون ساكنا ، فان كانت الألف وحدها من بين سائر الحروف جازت وذلك نحو قطاة وحصاة وارطأة وحبنطاة. أفلا ترى إلى مساواتهم بين الفتحة والألف حتى كأنها هي هي "[29].

فتاء حمزة وطلحة وقائمة وغيرها يكون ما قبلها مسبوقا بفتحة قصيرة ، ولا فرق في الدلالة بينهما وبين تاء قطاة وحصاة وحبنطاة سوى أن هذه الكلمات الأخيرة مسبوقة بفتحة طويلة. والفتحة القصيرة والطويلة كأنهما شيئا واحدًا كما ذكر ابن جني.

والهمزة في حمراء وما شابهها ليست هي علامة التأنيث ، وإنما العلامة هي الفتحة الطويلة التي سبقتها ، والألف المقصورة في سلمى كذلك فتحة متوسطة. وكلاهما شيء واحد.

و التاء في قائمة وقطاة ليست علامة تأنيث وإنما العلامة هي الفتحة القصيرة أو الطويلة لما يجعلنا نقرر أن الألف الممدودة والمقصورة والتاء كلها شيء واحد وهو الفتح.

مصادر البحث ومراجعه:

1. رضا ، أحمد ، متن اللغة ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1377 هـ. 1958 ، I/ 211.
2. .السيوطي ، جلال الدين ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها. شرح وتعليق محمد جاد المولى بك ، وأبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوي ، بيروت ، منشورات المكتبة العصرية ، 1406هـ ، 1986م.
3. ..سيبويه ، عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب ط 2 ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، الخانجي ، دار الرفاعي الرياض ، 1402 هـ ، 1982 م.
4. الشرتوني ، رشيد ، مبادئ العربية في الصرف والنحو ، ط 9 بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، 1961 ، ١٧ .
5. المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، الكامل ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، السيد شحاتة ، القاهرة ، دار النهضة مصر للطباعة ، والنشر ، دت .
6. - FLEISCH, Henri , Traité de philologue arabe , Beyrouth Imprimerie catholique ,1961.

هوامش البحث.

1- رضا ، أحمد ، متن اللغة ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1377 هـ. 1958 ، I/ 211.

2- الشرتوني ، رشيد ، مبادئ العربية في الصرف والنحو ، ط 9 بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، 1961 ، ١٧ / 103.

3- FLEISCH, Henri , Traité de philologue arabe , Beyrouth Imprimerie catholique ,1961,vol. I, / 312.

4- Ibid ,I /312.

5- السيوطي ، جلال الدين ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها. شرح وتعليق محمد جاد المولى بك ، وأبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوي ، بيروت ، منشورات المكتبة العصرية ، 1406هـ ، 1986م ، 205/1.

6- سيبويه ، عمرو بن عثمان بن قنبر ، الكتاب ط 2 ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، الخانجي ، دار الرفاعي الرياض ، 1402 هـ ، 1982 م ، /317.

7- FLEISCH ,Henri , op cit , I /313.

8- السيوطي 129/2 ، 204 ، 205.

9- السيوطي ، /206.

10- سيبويه. /213 (باب مالحقته ألف التأنيث بعد ألف...)

11- ملاحظة: للنحو عند سيبويه معنى خاص وهو ما يقابل التراكيب في مصطلحات المعاصرين. ومعنى عام يتضمن زيادة على التراكيب الصرف والصوتيات والدلالة.

12- سيبويه ، /213 ، /214.

13- السيوطي ، / من 228 إلى 233.

14- سيبويه ، / 596.

15- FLEISCH ,Henri , op cit , /316.

16- Ibid. I / 316.

17- Ibid. I / 315.

18- السيوطي / من 131 إلى 134.

19- سيبويه / من 270 إلى 275.

20- FLEISCH, op cit, I /324

21- سيبويه / 280.

22- سيبويه / 272.

23- السيوطي /150 ، 151.

24- السيوطي / من 206 إلى 215.

25- السيوطي / 216 ، 217.

26- السيوطي / 223.

27- السيوطي / 218 ، 220.

28- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، الكامل ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، السيد شحاتة ، القاهرة ، دار النهضة مصر للطباعة ، والنشر ، دت / 105.

29- ابن جني ، /315.

30- ابن جني ، /318.